

الجاحظ

اتصلهم بالثقافة اليونانية . كما تتقف الجاحظ بالثقافة الفارسية عن طريق ابن المقفع . وقد وهب الجاحظ حياته كلها للتأليف ، ولم يقيد نفسه بأى عمل آخر حتى ألف مجموعة كبيرة من الكتب بلغ عددها أكثر من ١٧٠ كتاباً ويبدو أن مما ساعده على ذلك عمره الطويل ؛ واضطراره إلى ملازمة بيته بسبب المرض ، إذ أصيب الجاحظ بالشلل سنوات طويلة ، كما أصيب بالنقرس في أواخر أيامه ، وهكذا تكاثرت العلل على الأديب العظيم واضطرته إلى ملازمة بيته ، فأخذ يشغل أوقاته بالقراءة والتأليف ، حتى سقطت عليه الكتب وهو في بغداد فقضت عليه ، وهكذا ذهب الجاحظ ضحية الكتب التي يذكر عنها في كتابه الخيوات « أنها أعز أصدقائه وأحبهم إليه » .

وقد رأينا أن الجاحظ عاش حوالي قرن من الزمان عاصر فيه اثني عشر خليفة من خلفاء العباسيين ، وأدرك أزهى عصور الدولة العباسية سواء من الناحية السياسية أو الناحية العلمية . فكان لهذه الحياة الطويلة التي عاشها الجاحظ تأثيراً قوياً في تكوين عقلية وثقافته . فقد مر في خلالها بأدوار مختلفة طبعت شخصية الجاحظ بألوانها

لا يزال تاريخ ميلاد الجاحظ مجهولاً حتى يومنا هذا ، وبعض الباحثين يرجحون أنه ولد ما بين سنة ١٥٨ وسنة ١٥٩ هـ . وقد امتدت حياة الجاحظ امتداداً طويلاً فطوى من عمر الزمان ٩٦ سنة وتوفي سنة ٢٥٥ هـ .

وقد ولد الجاحظ من أبوين فقيرين ، وذكر بعض المؤرخين أنه شوهد يبيع الخبز والسمك في « سيحان » أحد روافد شط العرب . ونشأة الجاحظ الأولى مجهولة ولا تكاد نعرف عنها شيئاً . كما أن معلوماتنا عن أسرته قليلة ولا تكاد نعرف عنها شيئاً ، سوى أن أمه هي التي كانت ترعاه . وربما كان السبب في ذلك يرجع إلى أنه فقد أباه وهو صغير .

وقد نشأ الجاحظ شغوفاً بالقراءة شغوفاً شديداً ، ويقولون إنه لم يكن يقع في يده كتاب في أى موضوع من الموضوعات إلا ويقرأه من أوله إلى آخره ، وقد عرف عنه أنه كان يؤجر المكتبات طوال الليل للقراءة والاطلاع . وثقافة الجاحظ مزيج ، فقد تتقف بالثقافة العربية على أيدي أشهر علماء البصرة ، كما تتقف بالثقافة اليونانية على أيدي المعتزلة . وهم المفكرون الأحرار في الإسلام كما يسميهم المستشرقون ، إذ أن المعروف عن المعتزلة شدة

— لا عليك يا محسن ... أبوك أعرف الناس بمصلحتك —
— ولكن لماذا لا يمنع الآباء الآخرون أبناءهم من الخروج ؟ ... ألا يعرفون مصلحة أبناءهم ؟ ...
— إنهم يعرفونها ولا شك ... ولكن لكل أب طريقة في تربية أبنائه .

— ولكن لماذا يضربني هكذا بقسوة ؟ ... إن الآباء الآخرين لا يضربون أبناءهم بهذا العنف ... لاشك أنه يكرهني ... وأنا أكرهه أيضاً ... أكرهه من كل قلبي ...

— لا يا محسن ... لا ينبغي أن أسمع منك هذا الكلام ... فإن هذا أبوك ويجب أن تطيعه ... فقد أمرنا الله بطاعتهم — حتى ولو ظلمونا ؟

— يجب أن تطيع أبك قبل كل شيء ... لأنك بذلك تكسب مرضاة الله .

— وهل يرضى الله عن ظلم أبي ؟
— إن الله لا يرضى عن الظلم أياً كان مصدره .
— وماذا يفعل الله بالظالم ؟
— يعاقبه جزاء ظلمه ...
— إذن لماذا لم يعاقب أبي ؟ !!
— إنك تتعجل العقاب يا محسن ... إن العقاب لا يكون في الدنيا بل في الآخرة ...

وبدا على محيا محسن سماء الحيرة والتفكير ، فسار الاثنان صامتين وراح محسن يفكر فيما قاله صاحبه ، ووصلا أخيراً البيت فودع عزيز صاحبه وسار في طريقه ، ودخل محسن البيت وكأنه مقبل على سجن ...

« يتبع »

على زكريا

المختلفة ، فقد ولد فقيراً فأحس بؤس الفقراء ، ثم اتصل بالوزراء والأمراء فعرف أخلاقهم وآدابهم وتقاليدهم ، ثم جمع مالا كثيراً فعرف الحياة الأرستقراطية ، وطاف بكثير من البلدان فعرف طبائع البشر واختلاف أساليبهم في الحياة .

ويمتاز الجاحظ بأسلوب متدفق فياض لا التواء فيه ولا دوران حول معانيه . ويمتاز كذلك أسلوبه بالفكاهة والسخرية . والطابع العام لأسلوب الجاحظ هو العناية بالألفاظ والمعاني بنسبة واحدة ، فهو يعنى بالفاظه بقدر ما يعنى بمعانيه . ويمتاز أسلوب الجاحظ كذلك بخصائص فنية منها الواقعية ، فقد كان الجاحظ مشغولاً بتصوير الواقع كما يراه في الحياة ، وكان يرسم صورة دقيقة واقعية لكل ما يدور في عصره من حياة اجتماعية أو سياسية أو أدبية ، دون أن يجد الجاحظ في ذلك أى حرج أو خجل من ذكر الحقائق الواقعية كما يراها بما فيها من محاسن ومساوئ . وهو يفعل ذلك في صراحة مكشوفة ، فكانت كتب الجاحظ ورسائله تمثل جوانب العصر الذي عاش فيه ؛ وبخاصة الجانب الاجتماعي بكل ما فيه من وجد ولهو ، ومن دين وزندقة . ومن الخصائص الفنية في أسلوب الجاحظ الاستطراد . فقد كان لا يقف عند الموضوع الواحد الذي يكتب فيه ، وإنما ينتقل من موضوع إلى آخر ، ثم يعود إلى الموضوع الأول ، ثم ينتقل إلى موضوع آخر . أى أن الموضوع عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد ، وكان الجاحظ يريد أن يبعد الملل عن قراء كتبه بهذا الاستطراد .

ومن الخصائص الفنية لأسلوب الجاحظ التنعيم الصوتي فقد كان الجاحظ حريصاً على أداء معانيه في عبارات تتساوى من حيث النعمة الموسيقية . فكل عبارة من عبارات الجاحظ تساوى العبارة التالية من الناحية الصوتية ، ويعتمد التنعيم الصوتي في أسلوبه على أساسين : أساس موسيقي وأساس لفظي . فأما الأساس الموسيقي فإن الجاحظ كان يجعل عباراته المختلفة متساوية من ناحية نغمتها الموسيقية ، حتى يبدو للقارئ أن الجاحظ لا يكتب ثراً وإنما يؤلف

الحنناً موسيقية . وأما الأساس اللفظي فهو التكرار والترادف ، فقد كان يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعددة . وكذلك من خصائص أسلوب الجاحظ الفنية ، التلوين العقلي ، فقد كان يعتمد على النطق اعتياداً واضحاً ، فيصطنع الأسلوب المنقّى في كتاباته ، فيقيمها على أساس المقدمات والنتائج والبراهين والأدلة . وكان الجاحظ يعتمد أحياناً على المغالطة والسفسطة .

والخلاصة أن الجاحظ يعتبر أعظم الكتاب الذين ظهروا في تاريخ النثر العربي حتى يومنا هذا ، وأنه استطاع أن يخطو بالكتابة الفنية عند العرب خطوة واسعة إلى الإمام ، حتى أصبح صاحب مدرسة أسلوبية مميزة ، آمن بها كثير من الكتاب بعده وتأثروا بها ، ولعل أشهر هؤلاء هو الدكتور طه حسين ، حتى أصبح من السهل التعرف على أسلوب الجاحظ من بين سائر الأساليب العربية .

فبصل صالح مطوع

الأرصدة البترولية

بقية المذشور على صفحة ٢٠

راقية ، وبهذه الوسيلة يمكن أن تضاهى (سويسرا) من حيث الجمال والروعة ، ويمكن مد المياه ليس للشرب فقط بل للزراعة ، وتستطيع الحكومة أن تقدم مختلف الخدمات المتعددة الجزيلة للأفراد ، كنشر الضمان الاجتماعي ، ورفع رواتب الموظفين ، ومساهمتها بدفع جزء من أثمان مختلف السلع ، فعلياً أن تباع السلع بأقل من أسعارها ، وتتحمل الخسارة ، وتتوسع في تقديم الخدمات الغير مباشرة ؛ كالتعليم والصحة وتشجيع إنشاء المصانع والشركات .. لقد ذكر الأستاذ هذه الآراء لاعلى أساس أحلام وتصورات ، بل دعم آراءه على أساس علمي دقيق . فالدخل كبير جداً بالنسبة لعدد السكان ، ولقد ذكر لي الأستاذ أنه لا يطلب بتنفيذ ما أشار به خلال سنة واحدة ، بل بوضع عدة مشروعات مدروسة يتم تنفيذها بعد عدة سنوات ...

مهندس علي الخرافي